جامعة المنصورة
كليـة الآداب

الشعر التعليمي في العصر العباسي

إعـــداد
عزة أحمد عبد العزيز وهبة
دكتوراه في اللغة العربية
كلية الآداب – جامعة المنصورة

مجـلة كلـية الآداب – جامعـة المنصـورة
العدد الواحد و الستون – أغسطس ٢٠١٧

الشعر التعليمي في العصر العباسي

عزة أحمد عبد العزيز وهبة

مقدمة:

ظهر الشعر التعليمي كوسيلة لحفظ المتون النحوية، وهو يهدف إلى تعليم الناس شئون حياتهم المادية والمعنوية بطريقة مؤثرة وسهلة، ويراد به الأراجيز التي نظموها، "فجاءت في حكم الأراجيز والقصائد، وهو ما يعبر عنه المتأخرون بالمتون المنظومة، كألفية الإمام محمد بن مالك في النحو العربي وغيرها مما يجمع قضايا العلوم والفنون وضوابطها"(١).

وإذا كان الشعر القصصي تتراءى فيه حياة الجماعات، ويدل على تيقظها وتنبهها للحياة، والشعر الغنائي يدل على تطور الحضارات واتساع سبل الحياة، والشعر التمثيلي يدل على تطور قوي في الحضارة، وعلى سعة تقدم الإنسان في سبيل الحرية الفردية والاجتماعية، فإن الشعر التعليمي يدل على "إقبال الفرد والجماعات على العلم والتحصيل"(٢).

بمعنى أنه يساعد على تيسير حفظ العلوم وسهولة تمثلها واسترجاعها، ويقول الجاحظ في هذا الصدد: "فإن حفظ الشعر أهون على النفس، وإذا حفظ كان أعلق وأثبت، وكان شاهدًا، وإن احتيج إلى ضرب المثل كان مثلًا"(٣).

إلا أن البعض خالف الرأي السابق، وذهب إلى وجهة مخالفة، وعده منهجًا صعب التعلم، كابن خلدون حيث يقول في مقدمته: "إن كثيرًا من المتأخرين ذهبوا إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، يولعون بها، ويزنون منها برنامجًا مختصرًا في كل علم، يشتمل على حصر مسائله باختصار في الألفاظ، وصار ذلك مخلًا بالبلاغة، وعسرًا على الفهم، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون بالتفسير والبيان فاختصروها تقريبًا للحفظ... وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطًا على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التعليم، ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم يتتبع ألفاظ الاختصار العويصة الفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها؛ لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت"(٤).

ويشير الرأي السابق إلى أن الاختصار الذي يلجأ إليه الشعراء في هذا النوع من الشعر من سوء التعليم، حيث أنه أخل بالبلاغة والتحصيل، وعسّر الفهم، سواء كان هذا الاختصار في الألفاظ، أو في الكتب الأمهات المطولة؛ لأنه يحتاج إلى وقت طويل من الوقت لفهم المغزى، أو المعنى المراد من وراء هذه الاختصارات.

ولقد توسمت المنظومات التعليمية في نظمها ببحر الرجز، أكثر من سائر بحور الشعر العربي، لكونه يتسم بالمعطيات التالية:

١- أسلس البحور وأيسرها للنظم.

٢- قابلية عظيمة في الاتساع والتطويل والشمول.
٣- قدرة فائقة على دقة التعبير في شتى العلوم والمعارف والفنون.
٤- بساطة إيقاعه جعلته أداة طيعة في التعبير.
٥- إمكانيات أجزائه المتعددة جعلته يتحمل سائر أصناف القول.
٦- حلاوة نغمه وخفه مزاجه في الترنم والإنشاد.
٧- يحقق للموضوع صيرورة باعتباره وزنًا شعبيًا متداولًا في الأوزان العامة.
٨- يستحث الذاكرة على التذكر واستحضار الاستشهاد بفكرة ما.
٩- يمكن اعتباره أحد الوسائل الخاصة بتقوية الذاكرة(٥).

على أن هناك أشعار تعليمية كثيرة في بحور الشعر الأخرى. ومن تلك الأشعار: معلقة زهير بن أبي سُلمى، وهي من بحر الطويل(٦)، وقصيدة لعدي بن زيد، وهي من بحر البسيط(٧)، وقصيدة لأمية بن أبي الصلت، وهي من بحر المديد(٨)، يقول فيها:

إنَّ آيات ربِّنا باقياتٌ
ما يُماري فِيهنَّ إلا الكفُورُ

واختلفت الآراء فيما يتعلق بنشأة الشعر التعليمي في الأدب العربي، فذهب بعضهم إلى أن العرب لم يعرفوا هذا اللون من الأدب إلا في وقت متأخر، نتيجة لاتصالهم بالفكر الوافد، كالثقافة الهندية مثلًا، التي اتصل بها العرب في العصر العباسي. ومن هؤلاء: أحمد أمين(٩). بينما يرى آخرون أن ذلك من مكتسبات الثقافة اليونانية(١٠)، على أن الدكتور طه حسين يرى أن أبان بن عبد الحميد اللاحقي، هو مبتكر هذا الفن في الأدب العربي، إذ يقول: "يظهر أن أبان هو أول من عني بهذا الفن"(١١)، وأنه: "إمام طائفة عظيمة الخطر من الناظمين، نعني أنه ابتكر في الأدب العربي فنًا لم يتعاطه أحد من قبله، وهو فن الشعر التعليمي"(١٢).

ويذهب د. شوقي ضيف أنه فن ظهر في أواخر العصر الأموي على يد رؤبة والعجاج في أراجيزهم، يقول: "ونحن نؤمن بأن هؤلاء الرجاز – وفي مقدمتهم رؤبة- هم الذين أعدوا شعراء العصر العباسي لا الشعر التعليمي فحسب؛ بل لاقتباسهم الغريب في أشعارهم"(١٣).

ونفهم من ذلك أن الأرجوزة الأموية من هذه الناحية تُعد أول شعر تعليمي ظهر في اللغة العربية، كما يرى د. شوقي ضيف أن الشعر التعليمي هو الأسلوب المتطور للأراجيز الأموية، فيقول: "ومهما يكن فقد أسهمت الأرجوزة الأموية أصحاب الشعر في العصر العباسي أن يقوموا بنظم شعرهم التعليمي، كما ألهمت أصحاب النثر أن يقوموا بصنع المقامة"(١٤).

وخلاصة الرأي السابق أن بداية هذا النوع من الشعر كانت في أواخر العصر الأموي، بينما كان الانتشار الحقيقي والذيوع في العصر العباسي، إذ ارتقت الحياة العقلية به رقيًا بعيدًا، دفعهم إلى صياغة كافة العلوم والمعارف

والأمثال والتاريخ في شكل قصائد شعرية حتى يسهل حفظها.

وقد تأثر الشعراء الأندلسيون، بما كانت عليه الحياة العلمية من تقدم وازدهار في عصر الموحدين، فنما الشعر التعليمي، واتجهوا إلى نظم قصائد وأراجيز في بعض أنواع العلوم والمعارف التي كانت شائعة في عصرهم؛ فنظموا في المعارف التي نظم منها الشعراء المشارقة، كالتاريخ واللغة والفلك وغيرها من العلوم(١٥).

وكان من الممكن أن يتطور هذا اللون من الفن إلى نوع من الشعر الملحمي، لكنه سار في اتجاه آخر لا ينتمي إلى الفن الأدبي، عندما راح المشتغلون بفروع العلم المختلفة ينظمون المادة العلمية في أراجيز مزدوجة من هذا الطراز، تكون بمثابة متون يحفظها الآخرون في تحصيل هذه العلوم(١٦).

وقد ظهرت بعض الدراسات التي اتخذت موضوع الشعر التعليمي محورًا لها، إذ تنبهوا إلى أهمية الحديث عن مثل هذا النوع من الشعر، ولفت النظر والاهتمام به، لنظم العلوم والمعارف في شكل قصائد شعرية، ابتغاء التسهيل والتيسير على طلاب العلم في حفظ وفهم ما يُستغلق على أفهامهم، أو يصعب الوصول إلى هدفه ومغزاه.

وقد انقسمت هذه الدراسات إلى قسمين هما:

أ. قسم خاص ببعض المقالات والبحوث حول هذا الفن مثل:

١- دراسة صالح آدم بيلو، حول الشعر التعليمي، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ٢٠١٠م.

٢- زين العابدين، سميحة محمد. الشعر التعليمي عند "ناصح قمشة أي" دراسة موضوعية فنية، مجلة الدراسات الشرقية، جمعية خريجي أقسام اللغات الشرقية بالجامعات المصرية، مصر، العدد ٥٥، ٢٠١٥م.

٣- جواد غلا معلى زادة، الشعر التعليمي، خصائصه ونشأته في الأدب العربي، ١٤٢٧ه. واشتمل على المفردات الرئيسة التالية: الشعر، الشعر التعليمي، الخصائص الفنية، النشأة، القيمة الفنية.

ب- وهناك بعض الكتب التي استقلت بهذا النوع من الفن، وهو القسم الآخر من الدراسات. ومن هذه الكتب ما يلي:

- زين الدين الميلباوي، الإيجاز في الشعر التعليمي الصوفي: (دراسة تحليلية عن كتابه هداية الأذكياء إلى طريق الأولياء)، ٢٠٠٩م، وهو بحث مقدم إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية شريف هداية الله الإسلامية الحكومية، جاكرتا، للحصول على الدرجة الجامعية الأولى وقسمه إلى خمسة أبواب هي:

➢ الباب الأول: خاص بالمقدمة، واشتملت على عدة عناصر هي: خلفية البحث، تحديد المشكلة، الغرض من البحث

والدراسات السابقة ومنهج وخطة البحث.

- الباب الثاني: بعنوان: "لمحة عن ترجمة الشيخ زين الدين المليباوي" من حيث العناصر الآتية: مولده، ونشأته وحياته، مؤلفاته، وفاته.
- الباب الثالث: "لمحة عن الإيجاز والشعر التعليمي الصوفي"، وتضمن حديث عن العناصر الآتية:

١- مفهوم الإيجاز وتعريفه، أقسام الإيجاز.

٢-مفهوم الشعر التعليمي الصوفي، ونشأته.

- الباب الرابع: "الإيجاز في الشعر التعليمي الصوفي لزين الدين الميلباوي"، دراسة تحليلية عن كتاب هداية الأذكياء إلى طريق الأولياء، واتضح من خلاله عدة نقاط هي: الشعر التعليمي الصوفي عن الوصايا التسع، صور الإيجاز فيه، إيجاز القصر فيه، إيجاز الحذف فيه.
- الباب الخامس: تضمن خاتمة احتوت على العناصر الآتية: الخلاصة، الاقتراحات، المراجع.

أما هذه الدراسة فسوف تتركز على إبراز أهم العلوم والمعارف، التي صاغها الشعراء شعرًا تعليميًا مثل: علوم التاريخ واللغة والفلسفة، حتى يستفيد منها المتعلمون والناشئة، بخلاف الدراسات السابقة التي لم تشر إلى تلك المعارف والعلوم، وطريقة صياغتها شعرًا، واكتفت في أغلب الأحيان بالإشارات الخاطفة حول نشأته وقيمته، وبعض صور الإيجاز، والقصر والحذف فيه، وأهم الشعراء الذين نظموا فيه مثل: الشيخ زين الدين الميلباوي، وناصح قمشة أي.

وإذا كانت الدراسات السابقة قد تناولت هذا الفن بشكل عام، وكان التطبيق على بعض شعراء قلائل، فلم تتضح صورة الشعر التعليمي كاملًا وبصورة تامة، فإن هذه الدراسة تأتي تحت عنوان: "الشعر التعليمي في العصر العباسي" يبقى له جدته لعدة أسباب من أهمها ما يلي:

أولًا: يعتبر العصر العباسي عصر الرقي في الحياة العقلية، جعلتهم يستحدثون فنونًا جديدة في كافة العلوم والمعارف.

ثانيًا: وصل هذا النوع من الشعر إلى قمة ازدهاره وانتشاره في هذا العصر، حيث صاغ فيه الشعراء كافة المعارف والعلوم والأمثال والتاريخ في شكل قصائد شعرية.

ثالثًا: يمكن من خلال قراءة هذه الأشعار أن يتكون لدى القارئ ثقافة واسعة لا حد لها في كافة المعارف بأسلوب سهل بسيط يكفيه مئونة الرجوع إلى العديد من المصادر الأمهات في هذه الفنون والمعارف. فهو يحمل بين أعجازه حضارة وثقافة عظيمة الخطر سواء للأمة العربية أو الإسلامية عمومًا.

رابعًا: بيان قيمة ودور هذا الشعر من الناحية الفنية إلى جانب قضية نشأته التي هي موضع خلاف بين مؤرخي الأدب.

وقد تركزت هذه الدراسة على إبراز أهم سمات الشعر التعليمي في العصر العباسي، وأهم العلوم التي اهتم بها الشعراء، ورأوا في صياغتها عن طريق الشعر أم مهم وضروري في توضيحها للناشئة، وتيسير السبل إلى استيعابها والإلمام بها، وتذليل كافة العقبات التي تقف دون هذه الغاية. مع بيان رواد هذا الفن في المشرق العربي.

وجاءت هذه الدراسة في مقدمة وفصل واحد، فاشتملت المقدمة على عدة عناصر هي: ماهية وتعريف الشعر التعليمي، ونشأته وأهدافه، أبرز شعراؤه، وأهم البحور التي نظم بها، وأهم الدراسات السابقة التي اهتمت بهذا النوع من الشعر، أو منهج الدراسة المتبعة لتوضيح تلك العناصر.

أما مضمون البحث، فقد احتوى على فصل واحد، بينت من خلاله أهم العلوم والمعارف التي استأثرت بعقول الشعراء، وأدركوا مدى صعوبتها وبعدها عن أفهام الطلاب لوعورتها، فأرادوا تسهيليها وتيسيرها عليهم؛ فصاغوها شعرًا بطريقة سهلة ومبسطة وهذه العلوم هي:

- أولًا: علوم التاريخ.
- ثانيًا: علوم اللغة.
- ثالثًا: علوم الفلسفة.

وخضعت هذه الدراسة للمنهج الوصفي، القائم على توضيح أهم العلوم والمعارف التي اهتم بها الشعراء، وطريقة صياغتهم لها.

أولًا: علوم التاريخ:

كثر النظم في التاريخ عند شعراء المشرق والمغرب، ورواده في المشرق هم: أبان اللاحقي وابن الجهم[١٧]، وابن المعتز[١٨] "وقد نظم أرجوزته التاريخية في حياة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩ه)، وأكملها بعد موته. وعني فيها بنظم سيرة المعتضد، مصورًا استقرار الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وما عمَّ البلاد في عهده من عدل، مقارناً بينه وبين ما عم البلاد من فوضى وفساد وظلم، وهي في نحو أربعمائة بيت"[١٩]، وهي أقرب إلى الشعر منها إلى مجرد النظم.

يقول د. شوقي ضيف: "والأرجوزة قوية النسج... إذ تتناسق فيها الصياغة تناسقًا بديعًا، وتبدو فيها بوضوح عواطف ابن المعتز ومشاعره، مما يجعلها تخفق بحيوية قوية، وقد استطاع أن يودع فيها سيرة المعتضد وأحوال الشعب في عهده من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكذلك فإنها تتفوق على كتب التاريخ من هذه الناحية... فالشعب ماثل أمامنا وسياط جُباة الضرائب تنوشه ويُزج به في السجون ظلمًا وعدوانًا، وأمواله تُسلب منه بغيًا وظلمًا"[٢٠].

وقد اكتوى ابن المعتز باستبداد الأتراك، وتجسم ذلك في مقتل المستعين بالله ووالدة المعتز، فتهزه وقفة المعتضد في وجه هؤلاء المستبدين. كما تورط بعض كبار موظفي الدولة في اختلاس أموال الدولة والأمة، وأخذوا الرشوة، وعذبوا أصحاب الضياع والأعيان؛

ليستخرجوا منهم كل ما يريدون من أموال؛ فصور ذلك في أرجوزته التي أرخ فيها خلافة المعتضد وأعماله الجليلة، موضحًا كيفية جباية الأموال في قسوة وعنف، وكانوا يسومونهم سوء العذاب، يقول:

فكم وكم من رجل نبيل

رأيته يُعْتَلُ بالأعوان

وجعلوا في يده حِبالًا

وعلَّقوه في عُرى الجدار

وصفَّقوا قفاه صفق الطَّبْل

وصبّ سَجَّانٌ عليه الزَّيتا

ذي هَيْبَةٍ ومَرْكب جليل

إلى الحُبوسِ وإلى الديوان

من قنَّبٍ يقطع الأوصالا

كأنه برَّادةٌ في الدار

نصبًا بعين شامت وخلِّ

فصار بعد بزةٍ كميتا[٢١]

ويمضي ابن المعتز فيذكر "أنهم مازالوا يعذبون المرء بصنوف العذاب حتى لا تبقى فيه قدرة على المقاومة، فيتوسل إليهم أن يعرضوه على التجار كي يقرضوه بعض أموالهم، أو حتى يبيعهم بعض عقاره، وأن يؤجلوه لذلك خمسة أيام، وبعد لأى يجعلونها أربعة، ويأتيه أصحاب الربا الفجرة، فيقرضونه واحدًا بعشرة، ويكتبون عليه صكًا بأنه باع ضيعته وينزل على إرادتهم حتى يخلص من هذا التعذيب الذي لا يُطاق بدفع ما يريده أصحاب الخراج"[٢٢].

ومن هؤلاء الشعراء في الأندلس: يحيي الغزال وتمام بن عامر وابن أبي الخصال وابن عبد ربه وحازم القرطاجني[٢٣]، وابن عبد الجبار، فهو أهم ناظم للشعر التعليمي في عصر المرابطين. يقول عنه ابن بسام: "أبرع أهل وقته أدبًا، وأعجبهم مذهبًا، وأكثرهم تفننًا في العلوم وأوسعهم ذَرْعًا بالإجادة في المنثور المنظوم"[٢٤]، ونوه بأرجوزته التاريخية، ويقول إنها تدل على رسوخ قدمه في العلم والمعرفة.

وتحدث فيها عن الخلفاء العباسيين، وختمهم بالخليفة المسترشد (٥١٢-٥٢٩هـ) قائلًا عنه:

وهو إلى الآن أمامُ الخلْق

والملكُ لله الإله الحقِّ

"وفي قوله: "إلى الآن" ما يدل على أنه عاش فترة عصيبة في مدة حكمه، قد تكون سبع سنوات أو أقل أو أكثر"[٢٥].

كما أنه استقصى أمراء الطوائف وبلداتهم استقصاءً دقيقًا، وصور من خلال ذلك فساد حكمهم وظلمهم للرعية، إذ انشغلوا عنهم بملذاتهم الخاصة، وفرضوا عليهم الجزية. يقول:

قد أهملوا البلاد والعبادَا

واشتغلت أذهانهم بالخمر

وزادهم في الجهل والخذلان

وعطلوا الثغورَ والجهادا

وبالأغاني وسماع الزَّمْرِ

أن ظاهروا عصابة الصُلبانِ[٢٦]

فهم قد أهملوا الرعية والجيوش المقاتلة على الثغور والحمى، وعاشوا للهو والخمر والغناء والزمر، وداخلوا طوائف النصارى في الشمال حتى قويت أطماعهم وخاصة أذفونش، ففرض

الجزية على المعتمد بن عباد وعلى غيره، والتقم طليطلة واسطة القلادة سنة ٤٧٨ه واشتعلت في كل جهة ناره.

وتلجأ الأندلس إلى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين، فينقذها من أذفونش ونصارى الشمال، ويسحق جنودهم، وينتصر عليهم في موقعة الزلاقة، وفيها وفي استصراخ أهل الأندلس لابن تاشفين يقول أبو طالب:

وإذْ أراد الله نصر الدين

فجاءهم كالصُبْح في إثر غَسَقْ

وواصل السيْر إلى الزلاقة

لله دَرُ مثلها من وقعة

وتُحل للشِّرك هناك عرشُه

استصرخ الناسُ ابن تاشفين

مستدركًا لما تبقى من رَمَقْ

وشاقه ليومها ما شاقه

قامت بنصر الدين يوم الجمعة

لم يُغْن عنه قومه أذْفُنْشُه(٢٧)

فهو يقول إن الله حين أراد نصر الدين الحنيف في الأندلس استصرخ أهلها ابن تاشفين، وكان ذلك في صدر سنة ٤٧٩ه فلباهم كالصبح المضيء في إثر ظلام كطبق، مستدركًا لما بقي في الأندلس من رمق يوشك أن يزهق ونفس يوشك أن يضمحل، وبادر عجلًا متلهفًا إلى الزلاقة بأُسْد وَغى والنصر يحف بركابه، ونازل العدو يوم الجمعة، وكان يومًا فاصلًا إذ حاقت فيه الهزيمة القاضية بألفونس السادس وجنوده وثُلَّ عرشه وسلطانه.

ولاشك أن الأرجوزة السابقة تدل على بصر الشاعر "الواعي بتاريخ حكام العرب شرقًا وغربًا منذ أقدم الحقب في الدول الإسلامية حتى زمنه"(٢٨).

وخلاصة القول أن الأراجيز التاريخية قد برعت في تصوير الجوانب التاريخية، وتصوير مآسي الشعوب خير تصوير، وتفوقت في هذا على كتب التاريخ نفسها، ويظهر ذلك بصورة واضحة عند الشعراء العباسيين، وشعراء الأندلس على حدٍ سواء، إذ اتفقوا على نبذ الظلم والعدوان والفساد، وتأييد الحق والعدل، وتمثل ذلك بجلاء في معاناة ابن المعتز الشاعر العباسي –من ظلم الأتراك واستبدادهم– وفرضهم سطوتهم وسلطاتهم بالقوة، وقتلهم لأبيه؛ فنفر منهم، ولجأ إلى مثال البطولة والعدل، وصاحب الأعمال الجليلة، الخليفة المعتضد، مصورًا صلاح الأحوال في عهده، من كافة النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ثانيًا: المسائل اللغوية:

انتشرت فكرة نظم الشعراء في المسائل اللغوية، وبصفة خاصة في الأمور المعقدة منها، ومن ذلك ما اشتهر به ابن دريد في العصر العباسي الثاني، بأنه أكبر عالم في اللغة، إذ عني بتضمين طائفة من أشعاره بعض المعارف، وتُعد مقصورته التي مدح بها عبد الله بن محمد بن مكيال والي الأهواز وابنه إسماعيل أشهر ما له في هذا الباب "إذ بنى قافيتها على الحرف المقصود وجعلها في نحو مائة وخمسين بيتًا، ويُقال أنه ضمنها ثلث المقصور في اللغة"(٢٩)،

وقد استهلها بالنسيب على طريقة الشعراء القدماء. يقول:

يا ظبية أشبه شيءٍ بالمَها

ترعى الخُزامى بين أشجار التفا(٣٠)

ومضى فيها يشكو من شيبه وصبه وسهاده لطول الفراق، واحتماله عذاب الشوق وآلامه، حتى ذوى غصنه الرطيب، وأصبحت حياته كلها غصصًا لا تُطاق؛ فيتجه إلى الدهر الذي يصب عليه المحن بالخطاب قائلًا:

يا دهرُ إن لم تك عُتْبَى فاتّئِدْ

لا تحسَبْن يا دهر أني جاذعٌ

مارسْت من لو هوت الأفلاك من

لكنها نفثةُ مصدودٍ إذا

فإن إرواك والعتبى سوا

لنكبة تعرقُق عَرْقَ المُدَى

جوانب الجو عليه ما شكا

جاش لغامٌ من نواحيها كما

وهو يبدي أمام محن الدهر وخطوبه صلابة وقوة لا حد لها حتى لو خرّت عليه الأفلاك وما تألم ولا شكا، وقد مضى يتعزى بمن سطا الدهر عليهم قبل أن يحققوا آمالهم من أمثال امرئ القيس ويزيد بن المهلب"(٣١).

ومن شعراء الأندلس: ابن مالك والقاسم بن قيسرة الشاطبي وأبو حيان الغرناطي، وابن عبد البر حافظ الأندلسي، وأبو بكر بن عاصم، وأبو الحسن بن الحصاد، وابن جابر الواده أشي، وعلي بن حريق المخزومي (٣٢) ، وحازم القرطاجني، وله مقصورة نالت حظًا من الشهرة، تعد من أروع قصائده الشعرية، وهي التي مدح بها المستنصر، وقد استهلها بالغزل ثم تحول إلى مديح أسلاف المستنصر، ومديحه في نحو مائة وعشرين بيتًا ذاكرًا انتسابه إلى الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ وهو انتساب يعلو إلى أسمى مرتبة. يقول:

مستنصرٌ بالله منصورٌ به

مُلكٌ حكى ملك سليمان الذي

مؤيد بعونه على العدا

لم يتجه لغيره ولا ابتغى

ويشيد بعظمة تونس ويشبهها بجنة الخلد، كما يتحدث عن المدن التي نهبها النصارى والتي كانت تكتظ بالعلماء والسادة والأعلام كما يتحدث فيها عن هجرته من الأندلس إلى تونس وما لقي بها من المتاعب والمشاق التي احتملها في جلد وصبر، كما تحدث عما تروي الأساطير والتاريخ عن رحلات العرب وملوكهم الجبابرة في الجاهلية، ويستصرخ المستنصر لإنقاذ الأندلس من براثن نصارى الشمال(٣٣).

ومجمل الرأي في هذه المسألة أن الشعراء برعوا في هذا الجانب إلى حد كبير؛ فجمعوا إلى جانب موهبتهم في الشعر ونظم القصائد، وبراعتهم في إتقان أوزانها وقوافيها، موهبة أخرى تبد أصحاب علوم اللغة، بأن خصصوا جزءًا من أشعارهم لدراسة هذه الجوانب اللغوية الغامضة منها؛ فدل ذلك على درايتهم باللغة دراية تامة. ومثال ذلك ما صنعه ابن دريد في مقصورته التي مدح بها عبد الله بن محمد بن مكيال وابنه إسماعيل، إذ ذلل قضية الحرف المقصور، وبنى قافيته على هذا الحرف

في نحو مائة وخمسين بيتًا، وبضمنها ثلث المقصور في اللغة، ومثله حازم القرطاجني في الأندلس.

ثالثًا: الفلسفة:

ظهرت في العصر العباسي بعض المسائل الكلامية، والمشاكل الفلسفية، نتيجة التقدم الحضاري، ورقي العقل العربي، واستيعابه للثقافات الوافدة عليه ومحاولته تمثلها في أشعاره، واعتبر ذلك قفزة حضارية كبرى، إذ لم يكن الشاعر القديم يعرف تلك المسائل، ولم تكن تخطر له على بال.

وانتشرت طوائف المتكلمين والفلاسفة، وكان لكل طائفة مذاهبها وآراؤها ومعتقداتها، وقدسوا العقل، وأعلوا من قيمته، وكانوا ينظمون قصائد كثيرة في بيان مذاهبهم الكلامية والتشيع لما يعتنقوه منها، والرد على مخالفيهم ونقض أدلتهم، كما هو معروف عن بشر بن المعتمر زعيم المعتزلة ببغداد، وفي فضل المتكلمين يقول الجاحظ: "لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة فإني أقول إنه قد أنهج لهم سبلًا وفتق لهم أمورًا واختصر لهم أبوابًا ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة"[٣٤].

وشارك كل من الشعراء والفلاسفة في نظم أشعار تتضح فيها النزعة الفلسفية، التي ثأروا بمناقشات المتكلمين والمعتزلة، ومن هؤلاء الشعراء في العصر العباسي الأول أبو نواس[٣٥]، وبشار بن برد الذي كان كثير الاختلاف إلى مجالس واصل بن عطاء، رأس المعتزلة، وكان يحاوره في بعض مسائل العقيدة، وأهمها مشكلة الجبر والاختيار. وقد اختلف رأيه فيها مع رأي واصل الذي آمن بحرية الإنسان حرية تامة في جميع أفعاله، بينما آمن بشار بالجبر والاضطرار، وأن الإنسان ريشة في مهب القضاء تتحرك كما يشاء، وفي ذلك يقول:

طُبعت على ما فيَّ غير مخيرَّ
أُريْد فلا أُعْطَى وأعطى ولم أُرِدْه
هواي ولو خُيرِّتُ كنت المهذَّبا
ويَقْصُرُ على أن أنال المغَيَّبِ[٣٦]

ومزج بعض الشعراء في هذا العصر معانيهم وخواطرهم مزجًا بديعًا بالفلسفة، وفي مقدمتهم أبو تمام، الذي أعطى لشعره بهذا المزج شيات جديدة، وملامح مبتكرة، واتسمت أشعاره في أثناء ذلك بالغموض، حتى نسبة القدماء إلى غموض المعاني ودقتها[٣٧].

ولكن د. شوقي ضيف يختلف بعض الشيء مع رأي الآمدي، فيذهب إلى أن الغموض الذي جلل أشعار أبي تمام "لا يحجب ما وراءه من المعاني الخفية والخواطر المستترة، إذ ما تلبث من تنعم النظر في تلك الأشعار أن ينكشف عنها الحجاب لنا، كما ينكشف ستر الفجر الرقيق عن أضواء الصباح البهيجة"[٣٨]، بمعنى أننا يمكننا التوصل إلى المعاني والخواطر الغامضة للشاعر إذا نحن دققنا النظر وأنعمنا التفكير في مراده، والمقصود من وراء معانيه، وذلك بالطبع لا يصلح إلا مع الطبقة المثقفة المتعلمة، التي

يمكنها التوصل لمغزى معانيه بســـهولة، بينمـــا يستغلق ذلك ويصعب على العامة بكل تأكيد.

ومن ملامح غموض المعاني عند أبـــي تمام، أنه صيغ صورته الفلسفية الغامضة ألوانًـــا من التضاد، مما أكسبها ألوانًا وأصباغًا متقابلة، ومن ذلك قوله:

بيضاءُ تسري في الظلام فيكتسي

نورًا وتَسْرب في الضياء فيظلم(٣٩)

فقد جعلها تكسف ضياء الشمس بجمالها الفـــائق، حتى يستحيل بالقياس إلى ما تنشر حولهـــا مـــن النور قاتمًا مظلمًا وكأنما نورها ينســـخ ضـــياء الشمس نسخًا ويطمسه طمسًا، فإذا هو قاتم، وإذا هو يستحيل ضياءً مظلمًا"(٤٠).

ومن الشعراء من اقتحم كنوز الحكمـــة اليونانية وصاغ منها فرائد بديعة، ومن هـــؤلاء: المتنبي، الذي كان له مذهب خاص في صـــناعة الحكم والأمثال، وكان أكثر الشـــعراء اســـتهدافًا لاتهامه بسرقة معانيـــه مـــن أقـــوال الفلاســـفة والحكماء وخاصة أرسطو، حتى إن أبـــا علـــي محمد بن الحسن المظفر الحاتمي قد كتب رسالة خاصة في ذلك، أورد فيها من معاني المتنبي ما جاء موافقًا لقول أرسطو في حكمته(٤١)، ومـــن ذلك قوله:

يُرَادُ من القلب نسيانكم

وتأبى الطباعُ على الناقِلِ(٤٢)

"وأصله عند أرسطوطاليس: رومُ نقل الطباع من رديءَ الأطماع شديد الامتناع"(٤٣).

كما أنه ذهب يستخدم هذه الحكم، مضيفًا إليها ضروبًا من الأقيسة المنطقية، لينال ما يريد من الشهرة والصيت والدويّ العالي وسط أوساط المثقفين. يقول:

وتركُك في الدنيا دويًا كأنما

تداولُ سَمْعَ المرءِ أَنْمُلُه العَشْرُ(٤٤)

كما قام بعض فلاسفة العصر العباسي بصـــياغة أدائه الفلسفية شعرًا في قصائد طريفـــة، ومـــن هؤلاء: ابن سينا(٤٥)، وابن الشبل البغدادي الذي يقول:

بربِّك أيُّها الفَلَكُ المُدارُ

أَقصْدٌ ذا المَسيُر أم اضطراد

وقد مضى يتحدث فيها عن حيرته إزاء حركـــة الفلك والكواكب والنجوم وسنن الكون والمـــوت والحياة والدنيا وآلامها والنفس وأنسها بالجســـد، ثم نفارها منهـــا أي نفـــار، وخـــروج آدم مـــن الفردوس وما حل ببنيه من البـــوار والفواجـــع والشقاء، ويفيض فـــي الحـــديث عـــن الجبـــر والاختيار وألغاز الوجود والفناء وعجز الإنسان إزاء ما يلم به من الكوارث والخطوب. ويصور انتهاء العالم مستمدًا من الذكر الحكيم مـــا يمـــلأ القلوب به هولًا وفزعًا مستخرجًا من ذلك العبرة والعظة(٤٦).

وخلاصة القول أنه نتيجة التقدم العقلـــي والحضاري في هذا العصر، فإن الشـــعراء قـــد تأثروا بالثقافات الوافدة عليهم نتيجـــة الامتـــزاج الحضاري وكان نتيجة لـــذلك ظهـــور بعـــض المسائل الكلامية والفلســـفية وانتشـــار طوائـــف المتكلمين والفلاسفة، الذين قدسوا العقل ووضعوه مكانًا عليًا، وراحوا يؤيدون مذاهبهم ويؤكـــدونها من خلال ما ينظمونه من قصائد، ومخالفين في

أثناء ذلك آراء مخالفيهم، كما عرفنا عند بشر بن المعتمر زعيم المعتزلة ببغداد، كما أن منهم من تطرق إلى بعض مسائل العقيدة، كمشكلة الجبر والاختيار، وهل الإنسان مسير أم مخير؟، ومنهم أيضًا من مزج معانيه بالفلسفة مزجًا بديعًا كأبي تمام، فاكتسب شعره بذلك شيات وملامح جديدة، حتى نسب إلى غموض المعاني ودقتها.

الخاتمة:

ظهر الشعر التعليمي لينظم فيه الشعراء مختلف العلوم المعاصرة لهم، وقد غلب على هذا النوع من الشعر العقل والمنطق، وخلا من العاطفة، واعتمد على إظهار الحقائق. وقد تنوعت مجالات العلوم والمعارف التي استأثرت بعقول الشعراء ووظفوها في أشعارهم، شعرًا يستفيد منه المتعلمون والناشئة، ومن استغلق عليه فهمها في مصادرها اللغوية الأصيلة، ومن هذه العلوم والمعارف ما يلي:

أولًا: التاريخ:

وقد ظهرت من خلال هذا الجانب عاطفة الشعراء الجياشة إزاء نقيضين، جانب العدل، وجانب الظلم والجور، كما رأينا عند الشاعر ابن المعتز، الذي أرخ لخلافة المعتضد العباسي وأشاد بعدله واهتمامه بكافة النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في عهده، ومن ناحية أخرى يدين الأتراك ويندد بجرائمهم في حق الشعب سواء من حيث القتل والتعذيب والاضطهاد وفرض الضرائب، وفتح أبواب السجون على مصاريعها لمن يتخلف عن سداد ديونه. فكان بذلك عاملًا قويًا ومساندًا لكتب التاريخ التي تحدثت عن هذه الحقبة في تاريخ الزمن بل ربما تفوقت عليها في هذا الجانب.

ثانيًا: علوم اللغة:

يوجد باللغة بعض المسائل والأمور المعقدة لغويًا، وتُلجئ المضطر إلى قراءتها بالرجوع إلى مصادر اللغة وأمهات الكتب في هذا الجانب، وربما وجد فيها المتعلم صعوبة شديدة، فانبرى بعض الشعراء بمساندة علماء اللغة في هذا الجانب، ليسهل عليهم فهمها واستيعابها، وليثبت مقدرته اللغوية الفائقة بعلوم اللغة، ومثال ذلك ما وجدناه عند ابن دريد العباسي، وحازم القرطاجني الشاعر الأندلسي.

ثالثًا: الفلسفة:

وكانت الفلسفة من العلوم الوافدة على العصر العباسي، نتيجة التقدم الحضاري والتطور الفكري بالمقارنة بما كان عليه الشاعر في العصر الجاهلي، إذ لم يكن يعرف شيئًا عن هذه العلوم بينما بدأ الشعراء العباسيون بالتأثر بالأفكار الفلسفية الوافدة من خلال الترجمة للفكر اليوناني، ومن خلال صراع الأفكار والمذاهب الدينية التي تبنت بعض الأفكار الفلسفية، كما هو معروف عند المعتزلة، ومن خلال مزاوجة أبي تمام بين الشعر والفلسفة، كذلك ما بثه المتنبي من حكم يونانية في شعره.

المصادر والمراجع

١- الآمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر ت: ٣٧٠ه): الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، كصر، ١٩٦١م.

٢- أحمد أمين: ظهر الإسلام، طبعة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٣م.

٣- أحمد عبد الستار الجوادي (دكتور): الشعر في بغداد، مطبعة دار الكشاف، بيروت، ١٩٦٥م.

٤- بشار بن برد بن يرجوخ (ت: ١٦٧ه): الديوان، شرح: حسين حموي، دار الجيل، بيروت، طبعة (١)، ١٩٩٦م.

٥- البغدادي (عبد القادر بن عمر ، ت: ٥١٧ه): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة (٢)، ١٩٧٩م.

٦- أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي ت: ٢٣١ه): الديوان، شرح: الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١م.

٧- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي (ت: ٢٥٥ه): الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م.

٨- أبو الحسن الأندلسي: أرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية، تحقيق ودراسة: عبد الله بنصر العلوي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، طبعة (١)، ١٩٩٩م.

٩- حنا الفاخوري: تاريخ أدبيات اللغة العربية.

١٠- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ترجمة: محمد بروين كناباري، مركز انتشاران علمي وفى هنكي – طهران.

١١- شوقي ضيف (دكتور):
- التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، مصر، الطبعة (٩)، ١٩٩١م.
- العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر.
- العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، الطبعة (٩)، ١٩٨٦م.
- فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، مصر، الطبعة (٢)، ١٩٧٧م.
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، مصر، الطبعة: (١)، ١٩٨٧م.

١٢- طه حسين (دكتور):
- من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.
- المجموعة الكاملة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة (٢)، ١٩٧٦م.

١٣- عبد العزيز عتيق _دكتور): الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م.

١٤- المتنبي (أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت: ٣٥٤ه): الديوان، شرح: أبو البقاء

العكبري، تحقيق: إبراهيم الإبياري وآخرون، طبع: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٧م.

١٥- محمد مصطفى هدارة (دكتور): مشكلة السرقات في النقد العربي، نشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م.

١٦- المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمد ت: ٤٢١ه):

- شرح المعلقات السبع، دار الجيل، بيروت.
- ابن المعتز: عبد الله (ت: ٢٩٦ه).
- الديوان: دار صادر، بيروت.

الحواشي السفلية:

١. عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة: (٢)، ١٩٧٦م، ص: ٣٢٩.
٢. حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجبل، بيروت، ١٩٨٧م، ص: ٣٢.
٣. الجاحظ: الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٦٩م، ص: ٢٨٤/٦.
٤. ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ترجمة: حمد بروين كناباري، مركز انتشارات علمي وفر هنكي، طهران، ج: (٢).
٥. انظر: أبو الحسن الأندلسي، أرجوزة الفواكه الصيفية والخريفية، تحقيق ودراسة: عبد الله بنصر العلوي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة: (١)، ١٩٩٩م، ص: ٧٤/٧٣.
٦. انظر: إميل بديع يعقوب: المعجم المفصل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: (١)، ١٩٩٦م، ص: ١٦٦/١.
٧. المرزوقي: شرح المعلقات السبع، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص: ١١٩.
٨. انظر: المعجم المفصل، ١٦٣/١.
٩. أحمد أمين: ضحى الإسلام، دار الكتاب، بيروت، الطبعة: (١٠) د.ت، ص: ٢٤٦.
١٠. أحمد عبد الستار الجوادي: الشعر في بغداد، المجمع العلمي العراقي، الطبعة: (٢)، ١٩٩١م، ص: ٢٥٠.
١١. طه حسين: من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م، ص: ٢٨٦.
١٢. طه حسين: المجموعة الكاملة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة: (٢)، ١٩٨٠م، ص: ٥٤٠.
١٣. شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، مصر، ص: ٣٢٣.
١٤. المرجع السابق: ٣٢٤.
١٥. انظر: د. شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر، ص: ٢٤٦.
١٦. انظر: المصدر السابق، نفس الصفحة.
١٧. انظر: شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، الطبعة: (٩)، ص: ٢٤٨/٢٣٨.
١٨. انظر: شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص: ٢٤٩.
١٩. انظر: المصدر السابق، ص: ٢٥١.
٢٠. انظر: المصدر السابق، ص: ٢٥١.
٢١. ابن المعتز: الديوان، دار صادر، بيروت، ١٤٨/١.
٢٢. د. شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ٢٢/٢١.
٢٣. انظر: د. شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات (الأندلس)، دار المعارف، مصر، الطبعة: (٢)، ١٩٩٤م، ص: ٢٥٥/٢٣٨.
٢٤. ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١م، ص: ٩١٦/١.

٢٥.شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات (الأندلس)، ص: ٢٤٥.
٢٦.انظر: المصدر السابق، ص: ٢٤٨.
٢٧.انظر: شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات (الأندلس)، ص: ٢٤٨.
٢٨.المصدر السابق، ص: ٢٤٩.
٢٩. البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة: (٢)، ١٩٧٩م، ص: ١١٩/٣.
٣٠. .....
٣١. شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص: ٢٥١.
٣٢. انظر: شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات (الأندلس)، ص: ٢٤٤/٢٤١.
٣٣. انظر: المصدر السابق، ص: ٢٥٥/٢٥١.
٣٤. الجاحظ: الحيوان، ٢٠٦/٤.
٣٥. انظر: د. شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص: ٦٦.
٣٦. بشار بن برد: الديوان، شرح: حسين حموي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص: ٣٣١.
٣٧. الآمدي: الموازنة، بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م، ص: ٦/١.
٣٨. د. شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص: ٦٧.
٣٩. أبو تمام: الديوان، ص: ٢١٣/٣.
٤٠. د. شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، ص: ٦٧.
٤١. انظر: د. محمد مصطفى هدارة: مشكلة السرقات في النقد العربي، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة (٢)، ١٩٧٥م، ص: ٧٥.
٤٢. المتنبي: الديوان، شرح: أبو البقاء العكبري، تحقيق: إبراهيم الإبياري وآخرون، طبع: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٧م، ص: ١٤٩/٢.
٤٣. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص: ٣٢٦.
٤٤. المتنبي: الديوان، ص: ١٤٩/٢.
٤٥. انظر: شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، ص: ٦٩.
٤٦. انظر: المرجع السابق نفس الصفحة.